

الاستقامة

نقف الآن مع خُلُقِ قرآني أَمْرِ النبي ﷺ أن يستمسك به وأن يدعوا إليه؛ ألا وهو خلق الاستقامة.

حدودها وسبل تحقيقها:

إننا نقول عن الطريق المستوي الذي لا عوج فيه: إنه طريق مستقيم، وبه شبه طريق المحق ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١)، ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(٢)

واستقامة الإنسان: لزومه المنهج المستقيم ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(٣)

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ استقم على القرآن، استقم على أمر ربك والدين الذي ابتعثك به والدعاء إليه كما أمرك ربك ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٤)

(١) الفاتحة : ٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٣ .

(٣) هود : ١١٢ .

(٤) قصص : ٦ .

إن للطريق معالم وحدوداً، والإنسان مع الطريق المستقيم مُتَّبِعٌ لا مُبْتَدِعٌ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ﴾^(١)

إنه طريق الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فاتبعوه ولا تَطْعَمُوا؛ أي: لا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه؛ فليس للهوى في هذا الطريق نصيب ولا لاتباع الشهوات موضع. فاتقوا الله أيها الناس أن يطلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، إنه بما تعملون بصير.

ولكن ما سبيل الاستقامة وكيف تتحقق؟

لا بُدَّ من استقامة القلب أولاً؛ حتى تستقيم الجوارح، واستقامة القلب كما ذكر ابن القيم في كتابه (الوابل الصيب) تكون بشيئين:

* أحدهما: أن تتقدم محبة الله تعالى عنده على جميع المحاب. فإذا تعارض حبُّ الله تعالى وحبُّ غيره، سبق حبُّ الله تعالى حُبَّ ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.

وما أسهل أن يُدْعَى هذا، وما أصعب أن يُفْعَلَ؛ فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه، أو يحبه كبيره، وأميره، وشيخه، وأهله على ما يحبه الله تعالى. فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب.

وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابته، وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى، وقد قضى الله قضاء لا يُردُّ ولا يُدْفَعُ أن مَنْ أحب شيئاً سواه عُدَّ به ولا بُدَّ، وأن مَنْ خاف غيره سُلِّطَ عليه، وأن من اشتغل بشئ غيره

(١) الأنعام: من الآية ١٥٣.

كان خلقه القرآن

كان شؤماً عليه، ومن أثر غيرَه عليه لم يُبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطَه عليه ولا بُدَّ.

* الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي. وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهي؛ فإن الله ذمَّ من لا يعظم أمره ونهيَه؛ فقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ^(١) قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون الله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو «ألا يُعارضنا بترخصٍ جافٍ، ولا يعارضنا بتشديدٍ غالٍ، ولا يُحملا على علةٍ توهم الانقياد»

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق ﷻ تعظيم أمره ونهيَه؛ وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ﷻ برسالتِه التي أرسلَ بها رسولَ الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقيادُ لأمره ونهيَه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمرِ الله ﷻ واتباعه، وتعظيم نهيَه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيَه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسبِ هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان اليقين وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر؛ فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المترلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الخدود التي ربَّها الشارُع على المناهي.

فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الأمر الناهي؛ فعلامه التعزيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحيُّنها في أوقاتها، والمصارعة إليها عند وجوبها، والأسف عند فوت حقٍّ من حقوقها.

(١) نوح: ١٣.

أيها القارئ الكريم:

هل أدركت كيف يستقيم القلب قبل استقامة الجوارح بحُبِّ الله وتعظيم أمره وفيه؟ وهل يمكن أن يتحقق إيمانٌ بغير هذا الحب؟

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْفُرَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْفُرُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» ^(١)

أما تعظيم الأمر والنهي فلا يمكن أن تستقيم الطاعة إلا به؛ إذ كيف تطيع من لا تحترم أمره؟ وبرهان احترامك أن تستشعر دائماً فضل الأمر عليك وبرّه بك ورحمته فيما يأمر بك به أو ينهاك عنه، وأن تقبل ذلك بصدر منشرح وقلب مُحبٍّ خاشع صادق سليم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَهُمْ أَسْلِمًا﴾ ^(٢)

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٣) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ^(٤)

اللهم اجعلنا منهم.



(١) متفق عليه.

(٢) النساء: ٦٥

(٣) النور: ٥١، ٥٢.

آثار الاستقامة ونتائجها:

الاستقامة خلق قرآني تَخَلَّقَ رسول الله ﷺ به، وقد كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، وقد عرفنا حدودها من كتاب الله وسنة نبيه وسبل تحقيقها، ووقفنا عند استقامة القلب التي لا تتم إلا بحُب الله وتعظيم أمره ونهيه.

والآن نعيش بك مع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الاستقامة؛ لنعرف آثارها ونتائجها بعد أن عرفنا حدودها وسبل تحقيقها.

في سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزْلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾^(١)
وفي سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾^(٢)

وفي مسند أحمد عن أبي عمرو - وقيل: أبي عمرة - سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَ»^(٣)

(١) فصلت: ٣٠-٣٢.

(٢) الأحقاف: ١٣، ١٤.

(٣) رواه أحمد.

الله أكبر. « قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

مَحْزَنُونَ ﴾ ^(١)

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ إنه منهج حياة للضمائر والقلوب، منهج حياة للمعاملة

والسلوك، إنها العقيدة التي تتحدد بها صلات الناس.

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ فلا نعبد غيره ولا نشرك به شيئاً.

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ نحبُّ ونبغضُ فيها، ونصبر على ما نلاقي في سبيلها، وهل فاز

المسلمون إلا بالصبر على عقيدتهم؟ وهل عودوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن

يقولوا: ربنا الله؟! وهل يتخلى الله عمن يصدق فيها ويخلص في القيام بتبعاتها؟!

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ

حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ^(٢)

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ تلك هي العقيدة التي عبّر الرسول عنها بقوله: « قُلْ: آمَنْتُ

بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ » على منهج هذه العقيدة، واثبت عليها ولا تمل عنها ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا

إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ^(٣)، ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ

(١) الأحقاف : ١٣ .

(٢) الحج : من الآية ٣٩ ، الآية ٤٠ .

(٣) هود : من الآية ١١٣

مُسْتَقِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾ .

عندئذ تنزل ملائكة الله؛ لتثبت النفوس، وتطمئن القلوب، وتسوق البشرى إلى الثابتين على الطريق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٤﴾ خَنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٥﴾ ﴿٢﴾

إنما النصرة من جند الله الموحى إليهم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿٣﴾ إنه التأييد للذين يشقون في الله ويشتون على الطريق، إنه طريق واحد لا يتعدد، طريق الاستقامة على قولهم ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ﴿٤﴾

إن أمتنا الإسلامية وهي تنشئ وحدتها لا طريق لها إلا صدق الإيمان برها، والاستقامة مع مستلزمات الإيمان ومتطلباته.

إنما وهي تنشئ نصر الله، وتطلب تأييده، لا بُدَّ أن يكون شعارها دائماً ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وحده الذي نعبد؛ وحده الذي ندعو إليه؛ وحده الذي نعتمد عليه،

(١) الزخرف : ٤٣ .

(٢) فصلت : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) الأنفال : من الآية ١٢ .

(٤) الأنعام : من الآية ١٥٣ .

وحده الذي نحتكم إليه.

وهي بغير هذا الإعلان الواثق الصادق المعتر لن تجد لها من دون الله ولياً، ولن تجد من دونه نصيراً.

إن الصراط المستقيم الذي أمرنا باتباعه قد حُدَّت معالمه، وَبَيَّنَّت محارمه، و
« مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ » ^(١)

ولنا من تجربة التاريخ ما يُردع النفوس المبتدعة، ويردها إلى شريعة الله التي لم
نعرف لأنفسنا عزاً إلا بها، ولا نصراً إلا بنصرتها، ولا فوزاً إلا تحت رايتها ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢)

إن الاستقامة على الطريق تحتاج إلى عمل وجهد ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣)

إنه دين للواقع، كلُّ واقع مع كل زمان ومكان يعالج قضاياها باسم الله وابتغاء
مرضاته، وذلك هو الجهد الإنساني.

إنه جهد التطبيق، جهد الثبات وعدم الميل مع الهوى. إن عواصف متعددة قد
يبتلي المؤمنون بها في كل عصر؛ ليعرف أمر الإيمان، وتكشف حقيقة الناس أمام
أنفسهم ﴿ أَلَمْ أَحْسِبْ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

(١) منفق عليه.

(٢) الأحقاف : ١٣، ١٤.

(٣) السجدة : من الآية ١٧.

يُفْتَنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^ط فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿٣٢﴾^(١)

وأمام هذه العواصف تنكشف معادن الناس وتُعرف خصائصهم.

ولقد واجه المسلمون - بعد موت نبيهم - انقضاص الناس عليهم ومحاولة التفلت من بعض الفرائض، فوقف أبو بكر ليقول: « أفينتقص هذا الدين وأبو بكر حي، والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه متى استمسك السيف بيدي، ولو قاتلتهم وحدي »

فماذا كانت نتيجة هذه الوقفة الصامدة المستقيمة المتجردة ؟

كانت تأييداً من الله ونشراً لدينه وإعلاءً لكلمته.

لقد عبرت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن موقف والدها الذي كشفت المحنة، عن مكانته فقالت: « لقد نزل بأبي ما لو نزل بالرجال الراسيات لهاضها ».

فهل يعي المسلمون طريق عزهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة ؟ ﴿ وَأَنَّ هَذَا

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ^ط وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ^ع

ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾^(٢)



(١) العنكبوت : ١-٣.

(٢) الأنعام : ١٥٣.